نهاية العمليات الحربية
في شمال أفريقيا

الفصل التاسع عشر

obeikandl.com

obeikandl.com

لم يكن أحد من الخبراء العسكريين يتخيَّل أن يسقط الخط الدفاعي الحصين (خط ماريث) في أيدي قوات الجيش الثامن بعد أسبوع واحد من بدء هجومها ضده، فقد أنشأ الفرنسيون هذا الخط عام 1936؛ للدفاع عن تونس ضد أي هجوم إيطالي يُشَنُّ ضدها من الأراضي الليبية، وقاموا بتحصينه بإنشاء سلسلة من الدفاعات القوية والدشم المنيعة ومواقع المدفعية والمواقع المضادة للدبابات، ووضعوا أمامه نطاقات عميقة وكثيفة من الموانع وحقول الألغام والأسلاك الشائكة، وكانت الأنباء التي أُذيعت عن هذا الخط تصفه بالقوة والمناعة، وأنه غير قابل للاختراق أو التطويق، ولكن النهاية لم تلبث أن حلت وسقط خط ماريث الحصين، ولحق بسلفه الشهير خط ماجينو الفرنسي، وثبت بسقوطهما صحة المقولة التي سجلها التاريخ في كل الحروب وعلى مر العصور وهو أن أي خط دفاعي مهما كانت درجة مناعته وتحصينه يمكن في النهاية اختراقه أو تطويقه.

معركة خط وادي العكاريت

كانت فكرة الجنرال مونتجومري قائد الجيش الثامن عقب استيلاء قواته على خط ماريث ضرورة الإسراع في الهجوم على خط وادي العكاريت قبل أن تتمكَّن قيادة قوات المحور من إعادة تنظيم قواتها، وتدعيم مواقعها الدفاعية في الخط الجديد، فقام في بادئ الأمر يوم 29 مارس بدفع الفرقتين 2 نيوزيلندية، و10 المدرعة (من الفيلق 10) للتقدم إلى هذا الخط، في الوقت الذي أمر فيه الفيلق 30 باحتلال منطقة قابس ـ الحامة محافظًا بذلك على الأسلوب التكتيكي الذي اتبعه في عمليات المطاردة لجيش المحور بداية من منطقة العلمين حتى دخوله العاصمة الليبية طرابلس، وهو أن يدفع أحد الفيلقين للأمام للهجوم، بينما يبقى الفيلق الآخر في الخلف لاحتلال موقع دفاعي قوي؛ تجنبًا للهزائم التي حاقت بالجيش الثامن في الماضي؛ بسبب الهجمات المضادة التي كان يشنَّها ثعلب

الصحراء روميل، والتي كانت تتسبَّب في وقوع تلك الهزائم، والتي تبعتها عمليات الانسحاب المريرة عبر الصحراء، والتي كان أشهرها الانسحاب الشهير من خط الغزالة في برقة إلى خط العلمين في يونيو 1942.

لم يلبث الجنرال مونتجومري أن غيرَّ أوامره إلى قواته، فقد رأى ضرورة الاحتفاظ بالفيلق 10 الذي كان يتشكَّل من فرقتين مدرعتين (الفرقة 1 مدرعة، والفرقة 7 مدرعة) وفرقة مشاة (الفرقة 2 نيوزيلندية) للقيام بالعمليات الخفيفة الحركة التي ستتبع عملية اقتحام خط وادي العكاريت للانطلاق إلى شمال تونس، ولذا قرر إجراء عملية إعادة التجميع لقواته ليقوم الفيلق 30 بالهجوم على خط وادي العكاريت، بينما يبقى الفيلق 10 في الخلف كاحتياطي تعبوي.

وكانت خطة الهجوم التي قرر مونتجومري القيام بها تتضمن ما يلي:

1. توضع الفرقة 2 نيوزيلندية (من الفيلق 10) بصفة مؤقتة تحت قيادة الفيلق 30؛ لتقوم بإنشاء قاعدة وطيدة يمكَّن منها للفيلق 30 القيام بالهجوم.
2. يقوم الفيلق 30 بهجوم ليلي ليلة 5/ 6 إبريل على خط وادي العكاريت بمواجهة ثلاث فرق (الفرقة 51 في اليمين والفرقة 50 في المنتصف، والفرقة 4 الهندية في اليسار)؛ لإنشاء عدة رؤوس كباري في الخط الدفاعي للمحور.
3. فور تأمين رؤوس الكباري يقوم الفيلق 10 (الاحتياطي التعبوي) بعبورها، والانطلاق بسرعة نحو الشمال؛ لاحتلال مجموعة المطارات بجوار بلدة مزغونة.
4. يتقدم الفيلق 30 على محور الطريق الساحلي في اتجاه ميناء صفاقس، وبمجرد وصوله إلى الأرض المفتوحة شمال وادي العكاريت تتقدم الفرقة 7 مدرعة (من الفيلق 10) في موازنة بالداخل في اتجاه الشمال لاستغلال نجاحه، وقد قامت قوات الجيش الثامن بتنفيذ خطة الهجوم كما يلي:

§ في الساعة الرابعة صباح يوم 6 إبريل بدأ هجوم الفيلق 30 على خط وادي العكاريت، وكان أمل مونتجومري كبيراً في أن يحقق المفاجأة التكتيكية، فقد كانت الليلة حالكة الظلام؛ ولذا تمكَّنت الفرقتان 51 في اليمين و4 الهندية في اليسار من الوصول إلى أهدافهما، وإنشاء عدد من رؤوس الكباري في الخط الدفاعي لقوات المحور، ولكن الفرقة 50 التي كانت في وسط المواجهة لم تتمكَّن من تحقيق هدفها إلا متأخرة عن توقيتها المحدد، فقد تعطَّل هجومها؛ بسبب وجود مقاومة عنيفة من قوات المحور التي تواجهها.

§ استغل مونتجومري نجاح الفيلق 30 في إنشاء رؤوس كباري داخل الخط الدفاعي للمحور، وقام بإصدار أمره للفيلق 10 بالتقدم بسرعة عبر رؤوس الكباري، والانطلاق بعد ذلك شمالاً للاستيلاء على ميناء صفاقس، ثم سوسة على البحر المتوسط.

§ قام الفيلق 10 بالتقدم عند ظهر يوم 6 إبريل للمرور عبر رؤوس الكباري التي تم إنشاؤها داخل خط وادي العكاريت، ولكن قوات المحور قامت بهجمات مضادة عنيفة، مما تسبب في تعطيل تقدم الفيلق حتى حلول المساء.

§ تم انطلاق تشكيلات الفيلق 10 نهاراً يوم 7 إبريل عقب وصولها إلى الأرض المفتوحة، وواصلت تقدمها للشمال بمعاونة نيران المدفعية، وهجمات القوات الجوية التابعة للقيادة الجوية للحلفاء.

§ أصدرت قيادة قوات المحور أمرها ليلة 6/ 7 إبريل بالانسحاب العام لقوات المحور من خط وادي العكاريت لتحتل خط انفيدافيل الذي يقع شمال وادي العكاريت بمسافة تبلغ نحو 150كم، وصدر أمر مونتجومري ببقاء الفيلق 30 بخط وادي العكاريت.

§ بدأ الفيلق 10 في القيام بعملية المطاردة على المحور الساحلي، واستطاع خلال

يوم 7 إبريل إجراء الاتصال بالفيلق 2 الأمريكي الذي كان يتقدم من بلدة المكانسي شرقًا في اتجاه صفاقس، وبذا أصبح للحلفاء جبهة متصلة للمرة الأولى في تونس.

§ في يوم 10 إبريل سقط ميناء صفاقس في أيدي الفيلق 10، وبدأ العمل على الفور لإعداده لاستقبال السفن، وواصل الفيلق 10 تقدمه شمالاً، وهو على اتصال بمؤخِّرة قوات المحور المنسحبة التي كانت تتكون من الفرقتين 15 البانزر، و90 الخفيفة.

معركة خط انفيدافيل

في يوم 11 إبريل استمر تقدم الفيلق 10 على المحور الساحلي لاحتلال مدينة سوسة والاتصال بالجيش الأول البريطاني عند مدينة القيروان؛ ونظراً للتعطيل الذي جرى للفيلق 10 بسبب شدة مقاومة مؤخرة قوات المحور، لذا أمر الجنرال مونتجومري الفيلق 30 بإرسال الفرقتين 4 هندية و50 مشاة (من تشكيلات الفيلق 30) من منطقة وادي العكاريت للانضمام إلى تشكيلات الفيلق 10 الذي كان يقوم بعملية المطاردة لقوات المحور، وأن تقوم باقي تشكيلات الفيلق 30 (الفرقتان 7 مدرعة، و51 مشاة) بالتقدُّم على منطقة صفاقس لاحتلالها.

وفي يوم 12 إبريل استولى الفيلق 10 على مدينة سوسة، وواصل تقدُّمه يوم 13 إبريل حتى اتصل بالمواقع الأمامية للخط الدفاعي للمحور في انفيدافيل، وفي اليوم نفسه أرسل الجنرال البريطاني هارولد ألكسندر نائب القائد العام لقوات الحلفاء في شمال أفريقيا إلى الجنرال مونتجومري ليخطره بأن المجهود الرئيسي لقوات الحلفاء في المرحلة التالية سيقوم به الجيش الأول البريطاني، وأن واجب الجيش الثامن خلال هذه المرحلة هو الضغط بشدة على القطاع الجنوبي لدفاعات المحور؛ لتثبيته ومنعه من تعزيز قطاعه الدفاعي في مواجهة الجيش الأول، وطلب منه إرسال فرقة مدرعة وبعض وحدات أخرى لتدعيم هجوم الجيش الأول، وإزاء ذلك قرَّر مونتجومري ما يلي:

1. إرسال الفرقة 1 مدرعة وآلاي سيارات مدرعة (من الفيلق 10) لينضما إلى الفيلق 9 التابع للجيش الأول البريطاني في القطاع الشمالي.
2. أصبح الفيلق 10 المدرع يتشكل من فرقة مدرعة واحدة (الفرقة 7 مدرعة)، وثلاث فرق مشاة (2 نيوزيلندية و4 هندية و50 مشاة).
3. يقوم الفيلق 10 بالضغط بسرعة وبقوة على الخط الدفاعي للمحور عند انفيدافيل الذي تحصَّنت فيه قوات المحور بعد انسحابها من وادي خط العكاريت قبل أن تتاح لها الفرصة لزيادة تحصينه وتنظيم دفاعاته، وكانت دفاعات خط انفيدافيل تتميز بالقوة والمناعة، وكذا بوعورة الأرض من حولها وعدم ملاءمتها لاستخدام القوات المدرعة سوى في السهل الساحلي الذي يجاور البحر المتوسط بقدر محدود، ولكن يعيب هذا السهل شدة ضيقه وامتلائه بعدد كبير من السبخات ومجاري المياه مما يعرقل تحرك الدبابات والعربات، وإزاء ذلك أمر مونتجومري الفيلق 10 بالقيام بهجوم مدبرً على القطاع الساحلي من الخط الدفاعي ليلة 19/ 20 إبريل، وتضمنت الخطة ما يلي:

§ تقوم الفرقة 50 بالهجوم على قطاع الساحل؛ لتثبيت قوات المحور في هذا القطاع.

§ تقوم الفرقتان 2 نيوزيلندية و4 هندية بالهجوم على المواقع الدفاعية في القطاع الجنوبي.

§ تتولى الفرقة 7 مدرعة مسئولية حماية الجانب الأيسر للهجوم، وإجراء الاتصال، والتنسيق مع الفيلق 19 الفرنسي الذي يقوم بعملياته يسارها.

وقد بدأ الهجوم ليلة 19/ 20 إبريل تحت ستارة قوية من نيران المدفعية والقوات الجوية، وعلى الرغم من عنف مقاومة قوات المحور فقد سقطت انفيدافيل في أيدي

الفيلق 10، ولكن قوات المحور لم تلبث أن شنت هجمات مضادة عنيفة يومي 20 و21 إبريل، ولكن تشكيلات الفيلق 10 استطاعت التشبثُّ بمواقعها الدفاعية، وتجنُّبًا لمزيد من الخسائر أمر الجنرال مونتجومري يوم 22 إبريل بقيام الفيلق 10 بعملية إعادة التجميع بهدف تحويل المجهود الرئيسي من القطاع الداخلي إلى القطاع الساحلي، ونتيجة لتنفيذ تعليمات مونتجومري بتحويل المجهود الرئيسي للفيلق 10 أصدرت قيادة قوات المحور أمرها إلى قواتها بالانسحاب العام من خط انفيدافيل، وتم استيلاء قوات الفيلق 10 على أخر خط دفاعي لقوات المحور على مواجهة الجيش الثامن في تونس.

وفي يوم 30 إبريل 1943 قام الجنرال ألكسندر بزيارة الجنرال مونتجومري لتنسيق العمل معه بشأن الدور الذي سيقوم به الجيش الثامن لمعاونة الجيش الأول البريطاني في العمليات الهجومية التي سيقوم بها في شمال تونس، واتُّخِذَت في هذا الاجتماع القرارات التالية:

1. سحب الفرقة 50 من الجيش الثامن؛ كي يتم تدريبها، وإعدادها للاشتراك في عملية غزو صقلية.
2. سحب الفرقتين 7 مدرعة و4 هندية ولواء الحرس رقم 201 من الجيش الثامن لتعزيز جبهة الجيش الأول (في الواقع أن اختيار هاتين الفرقتين لتدعيم هجوم الجيش الأول على بقايا قوات المحور في أفريقيا يدل على أن القائدين ألكسندر ومونتجومري قد اختارا أفضل العناصر بالفعل في الجيش الثامن، فمن حيث التاريخ كانت الفرقتان هما القوة الضاربة في قوة الصحراء الغربية التي شكَّلها الجنرال ويفل قائد القوات البريطانية في الشرق الأوسط عام 1940، والتي أسند قيادتها إلى الجنرال أوكونور، وتغيرَّت تسميتها فيما بعد لتصبح الجيش الثامن، وقد أحرزت قوة الصحراء الغربية بفضل خطة الجنرال ويفل أول انتصار بريطاني في أفريقيا في ديسمبر 1940 على الجيش العاشر الإيطالي بقيادة الجنرال جرازياني الذي اجتاز الحدود المصرية في

سبتمبر 1940، وتقدَّم إلى مدينة سيدي براني، وأنشأ فيها منطقة دفاعية كبيرة، وقد تم للفرقتين 7 مدرعة و4 هندية تدمير القسم الأكبر من 6 فرق إيطالية، وإجبارها على الانسحاب إلى داخل الحدود الليبية).

أصبح تشكيل الجيش الثامن بعد سحب التشكيلات السابقة منه يتكون من الفرقة 2 نيوزيلندية والفرقة 56 مشاة (أحضرت أخيراً من طرابلس)، والفرقة 12 فرنسية، وتقرر احتلال جبهة الجيش الثامن هذه الفرق الثلاث مع وضع الفرقة 51 مشاة إلى الاحتياط في الخلف على أن يتم تدريبها، وإعدادها في مواقعها للاشتراك في عملية غزو صقلية.

وفي يوم 6 مايو شن الجيش الأول البريطاني هجومًا شاملاً على بقايا قوات المحور في منطقة مجاز الباب في أقصى الشمال، وفي 7 مايو استولى الجيش الأول على العاصمة تونس، وكان من أوائل الوحدات التي دخلتها اللواء 11 الهوسارز من الفرقة 7 المدرعة، وهم المشهورون باسم جرذان الصحراء.

وفي اليوم نفسه استولت قوات الحلفاء على ميناء بنزرت الكبير، وتم إعداده على الفور لاستقبال السفن، واستمرت عمليات تطهير الأراضي التونسية من قوات المحور حتى يوم 12 مايو حينما قام الجنرال فون أرنيم القائد العام الألماني لقوات المحور في شمال أفريقيا بالتسليم للقيادة العامة للحلفاء، ومعه نحو تسعين ألفا من رجاله الألمان والإيطاليين، وكان من ضمن من قاموا بالتسليم الجنرال الألماني فون سبونيك قائد الفرقة 90 الخفيفة الذي قام بتسليم نفسه وفرقته إلى عدوِّه القديم الجنرال فرايبرج (Freyberg) قائد الفرقة 2 نيوزيلندية، وانتهت بذلك العمليات الحربية في شمال أفريقيا.

سر اختفاء روميل في المعارك الأخيرة في تونس

لاحظ كثير من المؤرخين في أثناء تسجيلهم وتحليلهم للمعارك الأخيرة التي وقعت في تونس خلال شهري مارس وإبريل 1943 أن اسم الفيلد مارشال إروين روميل القائد العام لجيش المحور الأفريقي قد اختفى تمامًا عقب معركة مدينين التي نشبت في 6 مارس 1943 بين قوات المحور وقوات الجيش الثامن، وأنه غاب عن معارك خط ماريث ووادي العكاريت وانفيدافيل، وأخيراً تم توقيع الجنرال الألماني فون أرنيم على وثيقة تسليم جيش المحور الأفريقي لقيادة الحلفاء في تونس يوم 12 مايو 1943، وذهب ضباط وجنود هذا الجيش إلى معسكرات الأسرى بدون قائدهم الشهير روميل، مما تسبَّب في حيرة الكثيرين من الذين كانوا يتتبعون مجرى المعارك الأخيرة في حرب شمال أفريقيا.

وقد ثبت لنا بما لا يقبل الشك من تتبع الأحداث أن روميل قد غادر تونس بالطائرة إلى إيطاليا، ومنها إلى ألمانيا في بداية الأسبوع الثاني من شهر مارس 1943، ولكن الأمر الذي لم نستطع التأكد منه هو سر هذا الرحيل المفاجئ في هذا الوقت العصيب، وتركه وحدات جيشه الأفريقي، وخاصة وحدات فرق البانزر الألمانية التي طالما قادها إلى أروع انتصاراتها وأعظم أمجادها في حرب الصحراء.

لقد حدث تضارب كبير في أقوال الذين تعرَّضوا في بحوثهم لموضوع عودة روميل إلى بلاده في هذا التوقيت، فقد كتب الجنرال الأمريكي إيزنهاور القائد الأعلى لقوات الحلفاء في الحرب العالمية الثانية في مذكراته أن روميل قد هرب من تونس قبل وقوع الكارثة النهائية للنجاة بجلده، فقد كان يتوقع المصير المحتوم لجيش المحور الأفريقي، ولكن المتتبع للسلك العسكري لروميل الزاخر بالشجاعة والمجد منذ التحاقه بالجندية حتى لحظة رحيله لا بد أن يستبعد لجوء مثل هذا القائد العظيم إلى الفرار من المعركة للنجاة بنفسه، وقد قيل أن الإيطاليين كانوا يرغبون في رحيله عن الشمال الأفريقي،

ولكن لا يوجد أي دليل يؤيد ذلك، وقد قيل أيضًا أن صحته السيئة ومرضه وحاجته إلى عناية طبية أفضل من التي كان يتلقاها كانت السبب في عودته الفجائية إلى بلاده، وقدم بعض المهتمين بهذا الموضوع تعليلاً ربما كان منطقيًا، وهو أن الديكتاتور الألماني هتلر هو الذي أمره بالعودة، نظراً لما سوف يحدثه وقوعه في الأسر من تأثير على الروح المعنوية للشعب الألماني باعتبار أن روميل كان أحد قادته العظام، ويحظى وقتئذ بكثير من إعجاب الشعب وتقديره، ولكن هذا التبرير يحتمل كثيراً من الشك فإن هتلر حتى لحظة رحيل روميل من تونس لم يكن قد أدرك بعد أن نهاية الجيش الأفريقي محتومة، وكان يحلم كالعادة بإمكان صمود هذا الجيش، بل وقدرته في النهاية على طرد جيش الحلفاء من شمال أفريقيا، ولم يتم اقتناعه بمأساة هذا الجيش إلا يوم 8 مايو عندما أصدرت القيادة العليا في برلين أمرها بإخلاء فوني من القوات الألمانية والإيطالية عن طريق البحر، ومثل العديد من الأوامر التي كان يصدرها هتلر في المرحلة الأخيرة من الحرب، والتي كان من المستحيل تنفيذها، فلم يمض سوى ثلاثة أيام حتى قام الجنرال فون أرنيم بإخلاء تونس من قوات المحور عن طريق البحر، كما أمر هتلر، بل قام بالتوقيع على وثيقة تسليم جيش المحور الأفريقي بأكمله لقيادة الحلفاء يوم 12 مايو 1943، ولا شك في أن هذا التسليم يعد واحداً من أكبر الهزائم والكوارث التي حلت بأي جيش في التاريخ كان يضم مثل هذا العدد الضخم من الضباط والجنود (90 ألف مقاتل)، فضلاً عما كان بحوزتهم من أسلحة ومعدات ومؤن وعتاد كانت تقدر بمئات المليارات من المارك الألماني.